تمثل صورة المرأة في مجتمع القبائل الجنوبية في إيران

(دراسة حالة ؛ عصر القاجار)

د. نعمت الله زكي بور (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، قسم التاريخ، جامعه ياسوج، إيران
nematzakipoor@yahoo.com
مرضيه خواجه رباني
خريج الماجستير، قسم التاريخ، جامعه ياسوج، إيران
Marzie.rbni73@yahoo.com

Representation of the Image of Women in the Southern Iranian Tribal Society (Case Study ; Qajar Era)

Dr. Nematollah Zakipour (Corresponding Author)
Assistant Professor , Department of History , Yasouj University , Iran
Marzieh Khajeh Rabbani
Master graduated , Department of History , Yasouj University , Iran

الملخص:-

كانت النساء، باعتبارهن نصف المجتمع الإيراني في عهد القاجاريين، رغم ما فُرض عليهن من قيود وإجبار، يسعين دوماً إلى إثبات وجودهن في مختلف مجالات الحياة، مثل الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، وخاصة في الأنشطة السياسية في عصرهن. وكانت نساء القبائل والعشائر - كما أُشير إلى ذلك في معظم كتب الرحالة في تلك الفترة - يتمتعن بحرية حركة أكبر مقارنة بسائر نساء البلاد. ومن الموضوعات التي تطرّق إليها الرحالة بإسهاب، هو تولّي نساء رؤساء وشيوخ القبائل إدارة وحماية القبيلة في غياب الرجال.

يتناول هذا البحث في بدايته المكانة التاريخية للقبائل والعشائر في جنوب إيران، والتي تشمل في الواقع جميع قبائل الجنوب، والجنوب الغربي، والجنوب الشرقي لإيران. كما تم تحليل أنشطة نساء القبائل فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية والثقافية الهامة، مثل اللباس، ومستحضرات التجميل والعناية الشخصية، والوشم. وقد اعتمد هذا البحث على البيانات التاريخية المستمدة من النصوص التاريخية لفترة القاجار، ليقوم بدراسة تحليلية اجتماعية وتاريخية لمكانة ووضعية المرأة القبلية في جنوب إيران.

الكلمات المفتاحية: المرأة، المجتمع القبلي، جنوب إيران، القاجار.

Abstract:-

Women, as half of Iranian society in the Qajar era, despite the restrictions and compulsions imposed on them, were always looking for a way to express themselves in all areas of life such as social, cultural, economic, and especially in the political activities of their time. As mentioned in most travelogues of this period, tribal and nomadic women have always enjoyed more freedom of action than other women in the country. The maintenance and supervision of the tribe and clan by the women of the chieftains and chiefs in their absence is a topic that has been well addressed in the writings of travelers.

This research initially addresses the historical position of the tribes and nomads of southern Iran in question, which in fact includes all the tribes of southern, southwestern, and southeastern Iran. The activities of tribal women in relation to important social and cultural issues such as; Clothing, clothing, cosmetics, and tattoos have been examined. The present study, relying on historical data taken from historical texts of the Qajar era, has subjected the position and status of tribal women in southern Iran to historical sociological analysis.

Key words: Women, tribal society, southern Iran, Qajar.

١. المقدمة:ـ

لطالما كان نمط لباس النساء في القبائل والعشائر أقل عرضة للتغيّر، إلا أنه بعد توسّع العلاقات مع الدول الأجنبية والتعرّف على أنماط لباسهم، وكذلك إثر سفر ملوك القاجاريين إلى أوروبا، بالإضافة إلى قضية الاستقرار والتوطين للقبائل، خاصةً منذ أواخر العهد القاجاري وبداية عهد البهلوي، ظهرت اختلافات في أنماط اللباس بين نساء القبائل. لدرجة أنه في الوقت الحالي، نادرًا ما نجد بين العشائر من حافظت على زيّها القبلي. لقد كان وضع النساء عبر التاريخ دائمًا عرضة للتغييرات والتقلّبات، وكان ذلك يختلف بين سكان بلد واحد، أو منطقة واحدة، بل حتى بين الأعراق والقوميات المختلفة. ولم تكن القبائل والعشائر - بصفتها قوة مؤثرة جدًا في تاريخ البلاد - بمنأى عن هذه التغيرات، مع الفارق أن أسلوب حياة نساء القبائل والعشائر كان يختلف كثيرًا في بعض الجوانب. فالنساء القبليات يتمتعن مقارنةً بغيرهن من نساء المجتمع الإيراني بحرية أكبر، خاصةً فيما يتعلق بالحجاب واللباس، وتظهر هذه الفروقات بوضوح. لكن مع مرور الزمن والاقتراب من عالم الحداثة، ومع استقرار عدد كبير من القبائل الرّحّل، بدأت هذه الفوارق والعوائق تختفي تدريجيًا، ولهذا السبب شهدنا تغييرات في حياة هذه الفئة، خاصة النساء والفتيات من القبائل والعشائر. ونظرًا لطبيعة حياتهم ومعتقداتهم ونمط الترحال الذي يعيشونه، كانت القبائل دائمًا في حالة تنقّل، ولم يكن من السهل على الأدباء والباحثين الوصول إليهم، وكان البحث في أسلوب حياتهم مصحوبًا بالمخاطر والصعوبات، وربما لهذا السبب لم تحظَ بالاهتمام الكافي من قبل المؤرخين.

أما الرحالة الأجانب الذين زاروا إيران على مر العصور، وخصوصًا منذ عهد الصفويين، فقد كتبوا تقارير كثيرة، ومن خلال مذكراتهم ودراساتهم حصلنا على معلومات قيّمة عن حياة نساء العشائر في إيران، وخاصةً نساء القبائل والعشائر في جنوب البلاد، وهو الموضوع الرئيسي لهذا البحث.

٢. غطاء الرأس

إن نمط اللباس والحجاب والعادات الإيرانية، خصوصًا في مواجهة الغرباء الذين حاولوا التوغل في حياة النساء، كان دائمًا مصحوبًا بالمشقة، لأن النساء الإيرانيات، بسبب

قيود أسرهن وأزواجهن، لم يكنّ يستطعن التحرك بحرية أو الذهاب إلى أي مكان يرغبن فيه، وكان عليهن دائمًا ارتداء حجاب كامل. ولهذا السبب، كان من الصعب جدًا على الرحالة الأجانب، خاصة الرجال، التعرف على كافة جوانب حياة النساء ومظهرهن. ولكن من بين هؤلاء الرحالة، كانت هناك نساء أيضًا، إما بصحبة أزواجهن من السياسيين أو بدوافع مهنية أو شخصية، جئن إلى إيران، وفي هذه الحالة، كان من الأسهل لهن التفاعل مع النساء الإيرانيات والدخول إلى عالمهن، وبالتالي كنّ قادرات على معرفة تفاصيل حياتهن، و معاناتهن، ونواقصهن.

أما نساء القبائل والعشائر، فبفضل أسلوب حياتهن الأكثر تحررًا، وحرية الحركة التي تمتعن بها مقارنةً بنظيراتهن من نساء المدن، فقد كُنّ أقل إزعاجًا للرحالة الأجانب، سواء من النساء أو الرجال، وكان بإمكان هؤلاء الرحالة الوصول إليهن والتفاعل معهن بسهولة أكبر.

وكان من خلال ذلك يتمكّن الرحّالة من الاطلاع على نمط حياتهن وظروفهن المعيشية، خاصةً فيما يتعلق باللباس والحجاب. وفي الوقت نفسه، كان لنساء القبائل والعشائر غطاء رأس خاص بهنّ، يختلف حسب كل قوم أو قبيلة، ويعبّر عن هويتهن وانتمائهن. بعض القبائل كانت تستخدم أغطية رأس مصنوعة من الأقمشة القطنية أو الحريرية المزيّنة بألوان وزخارف مميزة، وكانت تُلفّ بأساليب فريدة تعكس التقاليد المحلية.

كذلك كان غطاء الرأس لدى بعضهن لا يغطّي الشعر كاملًا، بل يُظهر جزءًا منه، وهذا ما كان يلفت نظر الرحّالة الأجانب ويجعلهم يقارنون بين نمط حجاب نساء العشائر ونساء المدن. في بعض القبائل، كانت النساء يرتدين عمامة أو وشاحًا طويلاً يُلف حول الرأس والعنق، وأحيانًا يُستخدم لحماية الوجه من الشمس أو الغبار أثناء التنقل. كما أن بعض القبائل كانت تستخدم قطعًا من المجوهرات أو الخرز لتزيين غطاء الرأس، مما يضفي عليه طابعًا جماليًا وثقافيًا مميزًا.

كل هذه الخصوصيات في غطاء الرأس واللباس كانت تعكس تنوع الهويات الثقافية بين قبائل وعشائر إيران، وتُظهر مدى ارتباط اللباس بالعادات والتقاليد المتوارثة. ويشير بعض الرحّالة إلى أن هذا التنوع كان واضحًا لدرجة أنهم كانوا يستطيعون التعرّف على القبيلة التي تنتمي إليها المرأة من خلال زيّها فقط، لا سيما من شكل غطاء الرأس وأسلوب لفّه.

إن التساهل الذي كان يُلاحظ في التعامل مع هؤلاء النساء، وحتى إمكانية تواصلهن مع الأجانب، كان واضحاً. ومن بين الرحالة الذين دخلوا أراضي القبائل والعشائر، كانت هناك أيضاً نساء، ويمكن القول إن المعلومات المفيدة المتوفرة حالياً حول مختلف جوانب حياة الفتيات والنساء العشائريات، إنما هي بفضل وجود هؤلاء النساء الرحالات.

إليزابيث مكين روز ذكرت في مذكراتها أنها بصفتها طبيبة، سافرت إلى جميع المناطق التي يقطنها البختياريون، وخلال هذه الرحلات كانت تزور الـ«بيبيهات» أو السيدات الكبيرات، من أخوات وأمهات وقريبات الخوانين. كانت هذه الزيارات، التي كانت تجري كل بضعة أسابيع، تُجرى في الغالب داخل القلاع، حيث كانت تُعالج مرضاها. وكما أوضحت هي نفسها، فإن هذه الزيارات المتكررة أدت إلى نشوء علاقة صداقة ومودة خاصة بينها وبين معظم هؤلاء السيدات، وهذه الألفة والصدق في العلاقة، مكّناها من الاطلاع على أفكارهن وسلوكهن في أيام الفرح والحزن، كما أنهن روين لها الكثير عن عاداتهن وتقاليدهن(مكين، ١٣٧٣: ٣٤).

وفيما يخص ملابس النساء في مناطق البختياريين، ذكرت مكين أن النساء لم يكنّ يضعن أي نقاب على وجوههن، وكنّ يتجولن بحرية تامة في الحدائق والأماكن المفتوحة دون نقاب، بل كنّ يتحدثن بشكل طبيعي مع الرجال، سواء من قبيلتهن أو من خارجها، مثل الباعة المتجولين، وأصحاب المحال، والحكماء، أو الأطباء الأوروبيين. كما شرحت مكين في موضع آخر تفاصيل أكثر عن تواصل النساء البختياريات مع الغرباء والرجال غير المحارم، وذكرت أن "البيبيهات" في بختياري كنّ يظهرن بلا نقاب أمام الأب، ووالد الزوج، وأبناء الزوج، وإخوة الزوج، وأبناء أخ الزوج، دون أي قيود، وبعضهن كنّ حتى يتحدثن إليهم بلا نقاب. بالطبع، كانت هذه المسألة تختلف من خان إلى آخر، حيث كان بعض الخوانين يسمحون لنسائهم بالتحدث مع الرجال غير المحارم بدون نقاب(المصدر نفسه، ٩٥-٩٦). ويمكن القول إن مسألة عدم التغطية أمام الرجال، سواء كانوا معروفين أو غرباء، كانت أمراً عادياً بين أهل القبائل والعشائر الرحل في إيران خلال العصر القاجاري.

وقد أشار غوبينو إلى الفرق بين مكانة النساء في المدن والنساء العشائريات، وقال إنه، كأوروبي، لم يتمكن أبداً من رؤية وجه امرأة إيرانية في المدينة بسبب الحجاب الكامل

وأسلوب اللباس المغلق، بينما كانت النساء العشائريات مختلفات تماماً عن النساء الحضريات. ومن أسباب هذا الاختلاف مسألة الحجاب، بالإضافة إلى كون النساء العشائريات نشيطات، يركبن الخيل، ويشاركن جنباً إلى جنب مع الرجال في شؤون القبيلة. وعلى الرغم من أنه كان يرى النساء الحضريات تافهات، فقد كان يصف نساء العشائر بأنهن جديات ومفيدات (غوبينو، ١٣٨٣: ٣١٤).

أما لايارد، فقد كتب عن الحجاب وأسلوب لباس النساء عند مواجهتهن للغرباء في قبيلة محمد تقي خان، وقال إن نساء القلعة، وخصوصاً زوجات خان وقريباته، لم يكنّ يتسترن أمامه، ولم يضعن أي نقاب على وجوههن، وكان لديهن حرية في التنقل. وذكر أنه كان يشارك بانتظام في تجمعاتهم الأسرية الخاصة ليلاً، ويتحدث معهم ويستمع لأحاديثهم عن القبائل الأخرى(لايارد، ١٣٦٧: ٩٤). أما عن النساء البختياريات، فقد كتب وست قائلاً: "ليس لدى النساء البختياريات مانع من التحدث إلى الرجال بوجه مكشوف"(وست، ١٣٨٠: ٣٢). وكذلك أشار غروته إلى أنه خلال رحلته بين قبائل اللور، كان يحتك بشكل دائم بنسائهم، وذكر أن هؤلاء النساء، بشكل عام كان يتمتع بشخصية حرّة ومستقلّة، وكان يدرك تمامًا أنه كلما رآه الناس لم يتحاشوا النظر إليه، بل كانوا يبادلونَه الحديث. وعندما كان يدخل إلى بيت لا يوجد فيه رجل، كانت النساء يستقبلنه بوجه بشوش، ويقدمن له واجب الضيافة بأنفسهن(غروته، ١٣٦٩: ٥٦-٥٧).

وقد أضافت "بيشوب" أيضًا أن نساء بختياري كنّ يتنقلن بين الرجال، سواء المألوفين أو الغرباء، دون أن يغطين وجوههن أو يرتدين أي نوع من النقاب، ويقمن بأداء أعمالهن اليومية(بيسوب، ١٣٧٥: ٧٠). هذا الأمر لم تؤكده إليزابيث ماكن روز وإيزابيلا بيشوب فقط، بل أقرّه جميع الرحالة. فالمرأة العشائرية والبدوية تعيش في بيئة أكثر انفتاحًا وتشويقًا من شقيقاتها في المدن، وتتمتع بحرية أكبر. فلا وجود للحجاب كما هو الحال في المدن. فالنساء والرجال من قومية "اللور" يتميزون بعيون وشعر أسود شديد السواد، وبشرة نحاسية بنية، وأسنان ناصعة البياض ولامعة(روزن، ١٣٦٩: ٢١٢).

ولتأكيد هذه الأقوال، ذكرت الليدي شيل - وهي سيدة أجنبية أخرى قامت بجولات سياحية بين شعب إيران، وخصوصًا القبائل والعشائر - أن النساء العشائريات لا يغطين

وجوههن وفقًا للعادات السائدة، ومن هذه الناحية هنّ شبيهات بالنساء الأوروبيات تقريبًا(شيل، ١٣٦٨: ٤٧).

أما ديولافوا، التي أقامت فترة بين هؤلاء القوم، فقد كتبت أنها خلال فترة إقامتها لاحظت أمرًا مهمًا للغاية، وهو أن العرف المتبع في "الأنْدَرونيّات" (الأماكن الخاصة بالنساء) لدى النبلاء والأعيان في المدن الإيرانية، يمنع دخول أي شخص سوى صاحب المنزل أو النساء الأخريات والخصيان، ولا يجرؤ أي رجل غريب على النظر إلى هذا المكان أو النساء فيه. أما في العشائر، فالأمر مختلف تمامًا؛ إذ يُسمح لخدم الرجال بالدخول إلى الأندروني، ولا تغطي النساء وجوههن أمامهم، ويتحدثن إليهم بشكل عادي(ديولافوا، ١٣٧١: ٥٥١).

وفي المقابل، كان هناك عدد قليل من الرحالة الذين لم يروا فرقًا بين لباس نساء العشائر والنساء الإيرانيات الأخريات. من بين هؤلاء الرحالة رجل ياباني يُدعى يوشيدا ماساهارو، الذي لم يتناول موضوع العشائر بشكل مفصل، بل أشار بإيجاز إلى أن لباس نساء العشائر لايختلف عن لباس نساء إيران عمومًا(ماساهارو، ١٣٧٣: ١٢٦).

كانت النساء يُخبئن شعورهن بمهارة وجمال تحت قبعة تُدعى "لچَك"، وهي عادة شريط مخملي أخضر داكن أو بلون الرمّان، بعرض أربعة سنتيمترات وطول اثني عشر سنتيمترًا، تُثبت على الرأس وتغطي الأذنين. ويُطرّز هذا اللچك بدقة بخيوط صغيرة تُدعى "منجق"، وللتزيين تُضاف إليه العديد من العملات الذهبية والعملات الثمينة، وتُخاط على امتداد التطريز بحيث تتدلى على الجبهة.

بعد ذلك، يُضاف إليه "مينا" - وهي قطعة قماش حريرية شفافة جدًا وأحيانًا تشبه التول، يبلغ طولها نحو مترين ونصف، وتأتي بألوان متنوعة. كانت النساء يلففن هذه القطعة حول غطاء الرأس بطريقة تقليدية، بحيث تغطي الأكتاف والظهر وأحيانًا تصل حتى الصدر، وتُحيط الوجه دون أن تغطيه. ولتثبيت "مينا" في مكانها، كنّ يستخدمن وسائل خاصة كانوا يثبتونه(أي الميناء) بدبوس في اللچك، بالطبع بطريقة تبقى فيها الجهة المنقوشة من اللچك ظاهرة، ونتيجة لذلك يبقى الجزء الطويل منه حرًا ومتموّجًا خلف الرأس. ومن استخدامات هذا الجزء من الميناء بين النساء البختياريات أن النساء كنّ عادةً يربطن نقودهن أو مفاتيحهن في نهايته ويعلقنه على الصدر أو خلف الرأس. وبالطبع، أحيانًا كان الميناء

يسبب بعض الإزعاج للنساء أثناء قيامهن بالأعمال المنزلية، ففي هذه الحالة كنّ يلففنه حول الكتف أو حول الرقبة حتى لا يعيقهن عن أداء أعمالهن(مكبن، ١٣٧٣: ١١٨).

وقد وصفه "بيشوب" أيضًا بأنه كان نوعًا من المنديل الأسود الحريري والمزهر القطني يُدعى "الميناء"، وكانت النساء يلففنه حول رؤوسهن بحيث يغطي تقريبًا كل أجزاء الرأس والصدر والظهر، وكانت جميع فتيات ونساء القبيلة يستخدمن هذا النوع من الحجاب(بيشوب، ١٣٧٥: ٧٠). وكما كتب "ماكن"، كانت المرأة تفرق شعرها الأسود المخملي من منتصف الرأس إلى قسمين، وتربط القسمين بمحاذاة خديها أسفل الذقن، وتترك الباقي معلقًا خلف الرأس، ليغطي جزءًا من الظهر وحول الخصر. وكانت نساء بختياري أحيانًا يستخدمن باروكة (شعرًا مستعارًا) أيضًا(مكبن، ١٣٧٣: ١١٧).

أما "رايس"، فقد كتب عن غطاء الرأس والحجاب الذي كانت تستخدمه هؤلاء النساء قائلاً إن "البيبيات" (النساء الكبيرات) كنّ يستخدمن منديلًا (چارقَد) مزينًا بحواف من الخرز والعملات الذهبية الفاخرة، أما شالاتهن فكانت حريرية ملونة ومزينة بحواف جميلة جدًا وشراشيب من اللؤلؤ. وكانت الفتيات الشابات يضعن على رؤوسهن أوشحة بألوان زاهية مثل الأصفر والأخضر والأحمر أو اللاكي(الأحمر الداكن). وأخيرًا، كانت النساء المسنات يستخدمن وشاحًا حريريًا يُعرف بـ"سايه كوه"، نسيجه مكون من خيوط متعددة الألوان(كوليور رايس، ١٣٨٣: ٦٦).

وصف "پاتينجر" أيضًا طريقة تصفيف شعر النساء والفتيات البختياريات بقوله إن النساء الشابات، سواء كن عازبات أو متزوجات، يتبعن أسلوبًا بسيطًا وأصيلًا وجميلًا في رفع شعر الرأس، حيث يقمن بتقسيم الشعر إلى عدة خصلات، ويلففن كل خصلة حول الرأس، ويربطن نهايتها على شكل تاج فوق الرأس. ويقمن بترتيب الشعر ودمجه بنظام وانسجام لدرجة أنني من مسافة قريبة جدًا كنت أظن أحيانًا أنهن يرتدين تاجًا على رؤوسهن. أما النساء المسنات فكنّ يربطن على رؤوسهن منديلاً مزينًا بأقمشة صوفية أو حريرية مزهرة. كما كانت النساء البلوش، عند الخروج من المنزل، يغطين وجوههن حتى لا يُرَين، لكن في داخل المنزل كنّ حرّات(پاتينجر، ١٣٤٩: ٦٨).

لكن، وعلى عكس معظم الرحالة الذين كانوا يعتبرون طريقة تصفيف شعر النساء

البختياريات جميلة وجذابة، كان لـ"كوليور رايس" رأي مختلف وسلبي، حيث اعتبر أن هذا الأسلوب في تصفيف الشعر بين النساء البختياريات غير لائق وقبيح. وقد كتب قائلاً إن المرء يمكنه دائماً التعرف على نساء بختياري من خلال أسلوب تصفيف شعرهن الغريب. فشعرهن أملس وله بريق كالحرير، وإذا لم يكن أسود بشكل طبيعي، فإنهن يصبغنه ببراعة حتى يصير أسود اللون. يفرقن الشعر من منتصف الجبهة، ويسدلن خصلات الشعر الأمامية نحو الأسفل ويعقدنها تحت الذقن. هذا الأسلوب، برأيه، لا يليق بهن كثيراً، لكنه على أية حال، تقليد متبع. أما بقية الشعر، فيضفرنه في العديد من الجدائل ويلقينه إلى الخلف مثل بقية النساء الإيرانيات(كوليور رايس، ١٣٨٣: ٦٦).

٣. غطاء الجسم

كان لباس نساء القبائل والعشائر دائماً محط اهتمام الرحالة والمسافرين الأجانب، وقد تطرقوا إليه في كتاباتهم. وكان ديغار يرى أن نوع لباس النساء في أوساط القبائل نادراً ما يعكس الطبقات الاجتماعية، ويظهر هذا فقط من خلال عدد الملابس التي تملكها النساء، ويتجلى ذلك في تبديل الملابس وبالتالي في حالة استهلاكها ونظافتها. ومع ذلك، فإن الفروق الصغيرة التي تُلاحظ في لباس النساء غالباً ما تعود إلى الذوق الشخصي لهؤلاء النساء، كاختيار الألوان والزخارف المستخدمة في قماش الملابس، كما أنها ترتبط بالمناسبة التي تُرتدى فيها الملابس مثل الأعراس أو مآتم العزاء أو أداء عمل معين.

لكن ديغار أشار إلى أن النمط الأكثر شيوعاً في ملابس النساء هو فستان طويل يُسمى "جُووه" يرتكز على الأكتاف ويمتد حتى الركبتين. هذا النوع من الفساتين له أكمام طويلة مستقيمة الخياطة، ويتكون هيكل هذا الفستان من ست شرائط عمودية، ثلاث في الأمام وثلاث في الخلف، وتُضاف مثلثات مشقوقة على الجانبين، مما يجعل الفستان أوسع وأكثر راحة. كما أشار ديغار إلى نمط آخر من الفساتين بين النساء يشبه نمط "الجُووه"، ويعتقد أنه مستوحى من لباس نساء القرى في وسط إيران، ويتكون من جزأين: الجزء العلوي (البلوزة) مصنوع من مربعين من القماش مخيطين عند الكتفين والجانبين، ويتصل به من الأسفل تنورة (الجزء السفلي) كثيرة الثنيات.

عند دخول لايارد إلى قلعة "تل" ولقائه بزوجة محمد تقي خان من عشيرة "چَهارلَنگ"، وصفها قائلاً: "كانت امرأة طويلة القامة، ذات قوام حسن، ولا تزال شابة وجميلة، وكانت ترتدي لباساً محلياً، وشعرها الطويل كان مغطى بمنديل أرجواني اللون مربوط على رأسها، وكان يتدلى من الخلف وينسدل جزء منه على الجبهة وحول الوجه. وما إن دخلت حتى وقفت لتحيتي وقدمت لي الضيافة. لقد سحرتني بطريقتها العذبة والمحببة في الحديث. وقد رحبت بي نيابة عن زوجها، ثم شرحت لي بالتفصيل مرض ابنها".

كتب لايارد عن طريقة لباس نساء بختياري بأن لباس النساء يختلف عن لباس الرجال. فعند نهوض النساء من النوم، كن يرتدين فقط البلوزة أو السترة. وذكر أن لباس النساء البختياريات يشبه إلى حد كبير لباس النساء الإيرانيات الأخريات. أما بالنسبة لنوع القماش المستخدم بين نساء رؤساء القبائل(الخوانين) ونساء عامة الناس، فقد كتب أن النساء العاديات كن يخطن ملابسهن من قماش خشن ومنسوج يدوياً أو من قماش "چيت" أجنبي يُشترى من الباعة المتجولين. وتتألف هذه الملابس من سروال واسع جداً يمتد من الخصر حتى الكاحل، وقميص قطني أبيض يصل إلى حزام السروال. هذا القميص يُفتح من الأمام ويُربط حول الرقبة بواسطة حلقة خاصة. وفوق هذا القميص كنّ يرتدين سترة (ژاكت) مصنوعة غالباً من أقمشة "چيت" الحريرية الأجنبية، وعند ارتدائها كنّ يرفعن أكمامها حتى المرفق، وأحياناً يتركنها منسدلة. هذه السترات كانت تُفتح وتُغلق من الأمام. وفي الشتاء، كانت النساء أحياناً يرتدين بلوزة قماشية من نفس التصميم فوق ملابسهن. أما سترات نساء الخوانين فكانت تُطرز بالخيوط الذهبية، وتُخاط عادة من شال كشميري أو من أقمشة حريرية أو مخملية.

تصف لياورد في كتابه النساء البختياريات بأنهن كانن يتركن صدرهن وجزءًا من الجزء الأمامي من أجسامهن مكشوفًا بدون حجاب، إلا إذا كان عليهن إخفاؤه احترامًا لأزواجهن أو أمام رجل غريب. حينها، كن يغطين هذا الجزء من الجسم بشال كبير وملون يُلف حول الرأس والعنق. كانت بعض النساء يضفرن جزءًا من شعرهن إلى خصلات متعددة ويعلّقنه في مؤخرة الرأس، بينما يضعن الجزء الآخر بشكل متموّج حول الوجه وعلى الجبهة. أما النساء من الطبقات الفقيرة، فكن يربطن رأسهن بمنديل حريري أسود مع

وشاح قطني أبيض، وتُترك أطرافه معلقة من خلفهن. في بعض الأحيان، كانت بعض النساء يضعن أكاليل من شال كشميري مزخرف بأنواع مختلفة من المجوهرات على رؤوسهن(لَياورد، ١٣٦٧: ٩٨-٩٩).

كما وصف لياورد في مكان آخر، أثناء سفره من هويزة إلى البصرة، ملابس النساء قائلاً: "كانت النساء يرتدين ملابس جديدة وغالبًا ما يزينّ أنفسهن بالقطع الذهبية وغيرها من المجوهرات. لم يكن لديهن نقاب، وكانوا لا يخفين وجوههن عني، لأنهن لم يكن يعرفن أنني أجنبي. بعض الفتيات اللواتي قابلتهن على الطريق كنّ جميلات جدًا."(المصدر نفسه: ٢٤٠). غالبًا ما كانت النساء البختياريات يخطن ملابسهن بأنفسهن، باستثناء الأحذية والجوارب اللتين لم يكن باستطاعتهن خياطتهما. كانت هذه المهمة مصدر فخر لهن، حيث كنّ يقصّين ويخطن ملابسهن وملابس أزواجهن وأطفالهن باستخدام ماكينة الخياطة دون الاستعانة بأحد آخر. مكين يرى أن هذه النساء كن خياطات ودائيات ماهرات(مَكبن، ١٣٧٣: ١٢٠).

وفي وصفه لملابس النساء البختياريات، كتب جان بيير ديغار أن ملابسهن كانت، على عكس ملابس الرجال، لا تشهد تغييرات كثيرة في الشكل أو المكونات عبر الزمن. ومع ذلك، كن يشترين الأقمشة من المتاجر المحلية، ولكنهن هنّ اللاتي يقمن بتقطيعها وخياطتها بأنفسهن. واعتبر أن هذه الأقمشة، على الرغم من أنها قد تكون منفردة مزعجة، إلا أنهن بمجرد أن يرتدينها معًا تُشكل ملابس ملونة وأنيقة. النساء البختياريات يخطن جميع ملابسهن بأنفسهن(ديغار، ١٣٦٩: ٢٥٧).

أما رايس فقد انتقد هذه الملابس ووصفها بأنها ثقيلة وصعبة، مشيرًا إلى أن النساء البختياريات كانهن يتحملن هذا النوع من الملابس عن عادة. ورغم أنهن بدين مرتاحات من ارتدائها، إلا أن ثقلها وما تسببه من معاناة في الأعمال والأنشطة كان يُسبب لهن الكثير من المتاعب(كوليور رايس، ١٣٨٣: ٦٦).

أما باتينجر، فقد اعتبر أن ملابس النساء كانت مشابهة لملابس الرجال، حيث كانت عادة ما تتكون من أقمشة قطنية حمراء أو بنية اللون، طويلة حتى الكاحل، وتنفتح من الأمام حتى تحت الإبط، مما يجعل أجسامهن ظاهرة بشكل واضح. وكانت سراويل النساء غير طبيعية في اتساعها، وتصنع من أقمشة حريرية أو خليط من الحرير والقطن(باتينجر، ١٣٤٩: ٦٧-٦٨).

أما بيشوب، فقد أشار إلى أن ملابس النساء والرجال البختياريين كانت مختلفة تمامًا عن طرز الملابس التي يرتديها الآخرون من سكان المدن في إيران، واعتبر أن ملابسهم كانت أكثر اكتمالًا لملابس الحريرية أو القطنية الزرقاء التي كانت تنزل فيها التنورة المدببة حتى الكاحلين، كما وصفها(بيشوب، ١٣٧٥: ٦٨-٦٩). اعترف رايس أيضًا بهذه الاختلافات، وكتب أنه حتى بين النساء البختياريات، كان هناك اختلاف في أسلوب اللباس بين النساء الفقيرات والنساء من الطبقات العليا. كانت النساء الفقيرات عادة يرتدين قمصان قطنية زرقاء وسراويل طويلة تحت القميص وكتا بفرش إضافي من نفس القماش أو بنقش وأقمشة أخرى. وفي الشتاء، كان بعضهن يرتدين معطفًا يحتوي على طبقة من القطن الخام. كانت ملابسهن تصل إلى الركبة، وكانت الجلباب يتدلى على التنورة(كوليوررايس، ١٣٨٣: ٦٥). خلال زيارة لروزن مع النساء في الإيل، وصف ملابس النساء بأنها جميلة. النساء الإيلاتية ارتدين ملابس ملونة وأنيقة، وأقاموا خيامهم وأشعلوا النيران، وكانوا يعدون الشاي(روزن، ١٣٦٩: ٢١٤).

أضاف مكين أن ملابس النساء البختياريات كانت غير معتادة للظهور في المساء، حيث كن يغيرن ملابسهن مرة واحدة في الأسبوع في الحمام(مكبن، ١٣٧٣: ١٢١). وكتب باتينجر أن النساء لم يكن معزولات عن المجتمع الذكوري، بل كن يعشن معًا، ويتناولن الطعام على نفس المائدة. كانت ملابسهن تتكون من ثوب طويل وسروال من القماش القطني. وعندما تبلغ الفتيات سن البلوغ، كان يُضاف إلى ملابسهن السابقة سترة مربوطة في الظهر بواسطة حزام، وكانت مزينة برسوم مضحكة لطيور وحيوانات يتم تطريزها بخيوط ملونة(باتينجر، ١٣٤٩: ٧٧).

٤. الحجاب / الشادر

في جميع الكتابات الأجنبية، تم التأكيد على أن النساء في الإيلات لم يكنّ يرتدين الشادر إلا في حال خرجت امرأة إيلاتية إلى خارج منطقتها أو إلى المدينة، حيث كانت ترتدي الشادر. لذلك، كانت النساء في الإيلات يظهرن بملابسهن التقليدية أمام الغرباء وأمام المعارف. وصف مكين ملابس النساء البختياريات أثناء السفر أو عند الخروج من مناطقهن بأنها كانت ترتدي شادرًا أسود يغطي أجسادهن بالكامل، وسروالًا فضفاضًا يصل حتى الكاحلين، وكان هنالك نقاب أسود على الوجه(مكبن، ١٣٧٣: ١٢٠).

كما تناول لايارد هذا الموضوع وكتب أنه عندما ترغب النساء البختياريات في الخروج

من مناطقهن أو في سفرهن ومقابلة الناس الغرباء، كن يضعن الشادر على رؤوسهن، ولكنهن لم يرتدينه أبدًا داخل الإيل أو بين أفراد الأسرة أو القبيلة، حيث كنّ يتصرفن بحرية تامة في هذا الشأن(لايارد، ١٣٦٧: ١٠٠٠). ووافقت رايس على أنه في مناطقهن، لم تكن النساء البختياريات يستخدمن الشادر أو النقاب، بل كانت بعضهن، في بعض الأحيان، تفضل أن تحافظ على لباسهن التقليدي الإيلي حتى أثناء السفر إلى المدن. وأضافت رايس أنهن تعرضن أحيانًا للإهانة والاعتداء بسبب ملابسهن المختلفة عن النساء المدنيات (كوليورراريس، ١٣٨٣: ٦٢). لكن النساء في الإيلات العربية كانن دائمًا يرتدين الشادر عند الخروج والتنقل، وبعضهن كن يضعن نقابًا مصنوعًا من شعر حصان أسود على وجوههن بدلًا من الحجاب(ديولافوا، ١٣٧١: ٥٤٢).

٥. الزينة ومستحضرات التجميل لدى النساء

في مؤلفات ومذكرات الرحالة الغربيين، كان أحد الأمور التي حظيت بالكثير من الاهتمام هو كيفية استخدام النساء للزينة والمجوهرات. ففي بين النساء من القبائل، عندما كانت النساء يرتدين الملابس الرسمية بالكامل، كن يستخدمن المجوهرات والعملات الذهبية من نوع "أشرفي" لتزيين ملابسهن. بالإضافة إلى ذلك، كان يتم تعليق زوج من الأقراط الذهبية المزينة بأنواع من اللؤلؤ والأحجار الكريمة على جانبي الأذن لإضفاء مزيد من الجمال. كما ذكر "مكين" أنه كان يتم استخدام المجوهرات بشكل كبير، حيث كانت هناك قلائد كبيرة تحتوي على عملات ذهبية، وأساور، وخواتم من الماس، بالإضافة إلى قلائد من اللؤلؤ. ولكن لم يكن هذا الحال بالنسبة لجميع النساء، حيث كانت النساء البختياريات غالباً ما يستخدمن المجوهرات مع أزواجهن، بينما كانت النساء المسنات وخصوصاً اللواتي فقدن أزواجهن لا يستخدمن المجوهرات(مكبن ١٣٧٣: ١٢٠-١١٨).

أما "رايس" فقد ذكر أن استخدام المجوهرات كان أكثر شيوعاً بين النساء الثريات، بحيث كانت بعض المجوهرات التي يرتدينها النساء قد تصل قيمتها إلى عدة مئات من العملات الذهبية. بالطبع، لم يكن يتم ارتداؤها دائماً، بل كان ذلك يتم حسب الحاجة، حيث كانت الكثير منهن يرتدين الخواتم المصنوعة من الألماس، والأساور الثقيلة، والقلائد المكونة من اللؤلؤ، أو غيرها من المجوهرات كزينة لهن(كوليور رايس، ١٣٨٣: ٦٦).

كما ذكر "لايارد" في هذا الصدد أن النساء البختياريات كان لديهن ميول قوية نحو استخدام الزينة والمجوهرات مثل الأساور، والأساور التي توضع على المعصم، والقلائد الذهبية والفضية، وكان يتم ارتداء هذه المجوهرات بشكل مستمر حول الرقبة والمعصمين. بالإضافة إلى ذلك، كن يزينّ ملابسهن بتطعيمات صغيرة من الفضة تحتوي على آيات من القرآن مكتوبة على الجلد كنوع من البركة والتيمّن. كما أضاف "رايس" أن هذه الآيات القرآنية كانت تستخدم بشكل أكبر بين النساء، حيث كانت أي امرأة تستطيع، إذا كان بإمكانها تحمل التكاليف، أن تضع نسخة صغيرة من آيات القرآن في علبة صغيرة مزخرفة بالذهب أو الفضة كقلادة أو سوار، وفقاً لفهمهن للعالم، وكانت أحياناً تزينها بحجر كريم أو تمثال لزوجها(كوليور رايس، ١٣٨٣: -٦٥ -٦٤).

أما "دالماني" فقد وصف زينة النساء البختياريات على النحو التالي: كانت الزينة تتكون من قلادات وأطر فضية أو جلدية يتم ارتداؤها حول المعصم، بالإضافة إلى استعمال الحناء بشكل كبير لتلوين الشعر والأظافر. النساء والرجال البختياريون، مثلهم مثل باقي الإيرانيين، كانوا يلون حواجبهم وكفوف أيديهم وأقدامهم وأصابعهم بالحناء. وكانوا يقومون بذلك في حال كان لديهم وصول إلى الحمام، ولكن في المناطق الجبلية البختيارية لا توجد حمامات إلا في قلاع الحكام. أما نساء الحكام، فكن يشبهون نساء المدن في وضع مسحوق أسود يسمى "الكحل" على عيونهن، مما يجعل أعينهن أكثر سواداً ولمعاناً. أما النساء البختياريات، مثل أجدادهن، فكن يزينّ خدودهن بنوع من الوشم الأسود(لايارد ١١٣٦٧: ١٠٠).

إيزابيل بيسوب في ملاحظتها عن النساء والفتيات البختياريات وصفت كيفية تزيين وجوههن على النحو التالي: كانت النساء يرسمات حواجبهن بطريقة جميلة جداً، وكانت الفتيات يوشمن أيديهُن وعُنُقهن وصُدُورهن ووجوههن بتشكيلات نجمية من الوشم(بيسوب، ١٣٧٥: ١٣٣). أما النساء العربيات، فقد كنّ يستخدمن الحلقات الذهبية لتزيين أنوفهن، حيث كانت تقومن بثقب فتحتي الأنف ووضع هذه الحلقات التي كانت بعضها مرصعة بالمجوهرات(ديولافوا، ١٣٧١: ٥٥٠).

٦. وشم النساء

فيما يتعلق بالوشم على أجساد النساء والفتيات في قبائل البدو والعشائر في فترة قاجار،

والتي كانت شائعة جداً بينهن، كتب بيسوب أنهن كن يضعن وشوماً على ذقونهن وفي وسط جباههن على شكل نجوم. بالإضافة إلى ذلك، كنّ يوشمن أيديهُن بالعديد من الأوشام(بيسوب، ١٣٧٥: ٧٣). كما كتب بيسوب أيضاً أن النساء كنّ يوشمن كامل حواجبهن من الجانبين حتى حد الفصل بين الأنف والحاجب، وكنّ يضعن وشوماً على شكل مجرات أو طرق درب التبانة على ظهور أيديهُن(المصدر نفسه: ٨٩-٨٨). في سياق ملاحظاته عن النساء البختياريات، ذكر أن هؤلاء النساء كنّ يضعن وشوماً جميلة على حواجبهن، كما كانت الفتيات الصغيرات والأطفال يوشمن أيديهُن وأعناقهن وصدورهن وحتى خدودهن بتشكيلات على شكل نجوم (المصدر نفسه: ١٣٣).

أما نساء عرب خوزستان، فقد كنّ يزينّ أيديهُن وأقدامهن بأوشام زرقاء على شكل دوائر، كانت مفصولة بخطوط أفقية. كما كانت حواجبهن مزينة بأوشام سوداء، وكان لديهن وجوه رقيقة(جابريل، ١٣٧١: ٣٥٦).

النتيجة:

بناءً على ما تم بيانه، فإن الحياة، مكانة النساء في القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية في المجتمعات البدوية وحتى في المجتمع من حيث الزي والحجاب، بالإضافة إلى سلوك الرجال تجاه النساء، كانت جميعها محط اهتمام هؤلاء الأجانب، وتم تناولها في كافة كتاباتهم. من بين العوامل التي جذبت انتباه الرحالة والجغرافيين فيما يتعلق بقضية النساء هو طريقة حجاب نساء القبائل والعشائر، حيث أن هذا الزي المختلف، بناءً على الظروف المناخية، جعل النساء البدوية تُعتبرن أكثر حرية وأقل قيدًا مقارنة ببقية النساء في المدن في المجتمع القاجاري. في مجتمع القاجار، حيث كانت النساء الإيرانيات يقضين معظم وقتهن في تدبير المنزل وإنجاب الأطفال ضمن نطاق المنزل، وكان لهن أقل مكانة لدى الرجال، كان الاهتمام الذي يُمنح للنساء البدويات ومكانتهن في المجتمع القبلي أفضل بكثير من مكانة باقي النساء الإيرانيات. وقد جذب ذلك انتباه الرحالة الذين كانوا يرون حياة النساء في المدن كحياة ضعيفة، إذ كانت النساء البدويات في ديارهن لا يرتدين الحجاب أو أي نوع من الحواجز، وكان لديهن قيود أقل في التحدث والتعامل مع الرجال، في حين أن النساء في المجتمع القاجاري لم يكن بإمكانهن مغادرة المنزل بدون حجاب، ولم يكن لديهن الحق في التحدث مع الرجال الأجانب، وحتى مع بعض الرجال من أسرتهن.

قائمة المصادر والمراجع

١. بيشوب، إيزابيلا(١٣٧٥ هـ.ش). من بيستون إلى زردكوه بختياري، ترجمة مهراب أميري، الطبعة الأولى، طهران: سهند.

٢. باتينجر، هنري (١٣٤٩ هـ.ش). رحلة باتينجر، ترجمة شاپور گودرزي، طهران: بينا.

٣. دالماني، رينيه هنري(١٣٣٥ هـ.ش). رحلة من خراسان إلى بختياري، ترجمة فره وشي، همايون، طهران: أمير كبير، المجلد الأول.

٤. ديگار، جان بيير(١٣٦٩ هـ.ش). تقنيات البدو الرحل البختياريين، ترجمة أصغر كريمي، مشهد: آستان قدس رضوي.

٥. ديولافوا، مدام جان(١٣٧١ هـ.ش). إيران، كلدة، شوش، ترجمة علي محمد فره وشي، همايون، طهران: جامعة طهران.

٦. روزن كُنتِس مادفون(١٣٦٩ هـ.ش). رحلة حول إيران، ترجمة علي محمد قبادي، طهران: باژنگ.

٧. سكويل وِست، فيتا(١٣٨٠ هـ.ش). اثنا عشر يوماً في جبال بختياري جنوب غربي إيران، ترجمة مهران توكلي، طهران: ني.

٨. شيل، الليدي ماري(١٣٦٨ هـ.ش). مذكرات الليدي شيل، ترجمة حسين أبوترابيان، طهران: نو، الطبعة الثانية.

٩. كوليفر رايس، كلارا (١٣٨٣ هـ.ش). رحلة كلارا كوليفر رايس - النساء الإيرانيات وعادات حياتهن، ترجمة أسدالله آزاد، طهران: كتابدار.

١٠. غابرييل، ألفونس(١٣٧١ هـ.ش). عبور صحارى إيران، ترجمة فرامرز نجد سميعي، مشهد: آستان قدس رضوي.

١١. گرونه، هوغو (١٣٦٩ هـ.ش). رحلة گرونه، ترجمة مجيد جليلوند، طهران: المركز.

١٢. گوبينو، جوزيف أرثر (١٣٨٣ هـ.ش). رحلة الكونت دو گوبينو (١٨١٦-١٨٨٢ م)، ترجمة عبدالرضا هوشنگ مهدوي، طهران: قطره.

١٣. لايارد، سير أوستن هنري(١٣٦٧ هـ.ش). رحلة لايارد، ترجمة مهراب أميري، طهران: وحيد.

١٤. مكين روز، إليزابيث(١٣٧٣ هـ.ش). تعالَ معي إلى أرض البختياري، ترجمة مهراب أميري، طهران: سعدي